تشنشن

بقلم : لويجى بيراندللو
ترجمة : بهجت عبدالفتاح

جلس الكلب فى هدوء على رجليه الخلفيتين أمام الباب المغلق فى انتظار أن يفتح هذا الباب · ومن حين الى آخر كان يرفع مخالب رجليه ويحاول فتح الباب · ومن حين إلى آخر أيضا كان يطلق عواء خافتا ·

وعندما عاد تشنشى من المدرسة ، وهو يلف كتبه فى حزام يعلقه على كتفه ، وجد الكلب مايزال جالسا هناك فى الشارع · وتضايق الصبى لهذا الانتظار الطويل وركل الكلب · ثم انه ركل الباب بقوة وهو يعرف أنه موصد وانه لا يوجد أحد فى البيت · وأخيرا رمى الباب بكتبه كما لو أنه يترقع أن تدخل منه الكتب وتستقر على الأرض داخل البيت · ولكن الكتب ارتدت اليه ثانية بنفس القوة التى دفعها بها · ودهش الصبى كما لو أن الباب يلعب معه ، ودفع بالكتب مرة أخرى اليه · وحينئذ ـ ولأن هناك ثلاثة يلعبون تشنشى والباب والكتب ، أراد الكلب أيضا أن يشاركهم اللعب ·

وتوقف الناس لينظروا الى هذا الذى يحدث ·· وابتسم قليل منهم رغما عن أنفسهم لسخافة اللعبة وبسبب الفرحة التى كان يشعر بها الكلب · أما الآخرون فكانوا يشعرون بالحنق لأن كتبا غالية الثمن تعامل هكذا دون أدنى اهتمام أو مبالاة · وعلى الفور تعب تشنشى من اللعبة وألقى بكتبه على الأرض · ثم ترك جسمه ينزل ببطء ـ وهو يحتك بظهره فى الحائط ـ على الأرض · وأراد أن يجلس على الكتب ولكنها انزلقت من تحته ووجد نفسه يجلس على الأرض مباشرة · ثم تطلع حوله فى عبوس أبله على حين كان الكلب يقفز من هنا وهناك وهو ينظر اليه ·

كان يمكن أن نعرف مدى الألم الذى يشعر به الصبى فى هذه الخصلة من الشعر الذى بلون التبن والتى تهدلت على جبهته ، وأيضا فى عيونه الخضراء التى كانت تومض ببريق غريب · لقد كان فى السن الحرجة فى حياته أبله خشن الطبع · ولأنه نسى المنديل عندما عاد الى المدرسة بعد الظهر فقد اضطر أن يجلس على الأرض مباشرة وهو نحيف ، وساقاه الطويلتان فى حالة عرى لأنه مايزال يرتدى البنطلون القصير بالرغم من أنه تعدى السن التى يرتدى فيها هذه السراويل القصيرة · وكانت ركبتاه ترتفعان حتى مستوى وجهه · لم تكن الأحذية تستمر وتعيش فى رجليه طويلا فقد كان يسىء معاملتها · وهكذا فان الحذاء الذى كان يضم قدميه كان فى حالة من البلى ·

وشعر بالضجر . كان فى حالة ضيق شديدة . ثم أخذ يغط فى النوم وهو يحتضن ركبتيه . وفجأة سحب ظهره على الحائط مرة أخرى وانتصب واقفا. وقفز الكلب متوقعا شيئا . الى أين سنمضى ؟ لابد أننا سنمشى فى الحقول ، ربما لنحصل على ثمرتين من التين أو التفاح ؟ ولم يكن تشنشى متأكدا بعد مما سوف يفعل . وفى فتور وتراخ ربط كتبه ووضعها على كتفه .

وكان الطريق المعبد المرصوف ينتهى الى مابعد منزله حيث يبدأ الطريق القذر . كان هذا الطريق يؤدى الى أعماق الريف المنبسط الواسع . ما أعجب الأحاسيس التى تشعر بها عندما تركب عربة ثم تشعر بحوافر الحصان وعجلات العربة تنتقل من الطريق المعبد الى الطريق الهش القذر الصامت . وقد يشبه هذا المدرس الذى يكاد ينفجر من الغيظ ثم نراه فجأة يتحدث بهدوء وصوت رقيق ، ومن ثم تخف حدة الخوف من العقاب . لكى تمضى الى الريف الشاسع المنبسط يجب أن تتبع الطريق القذر حتى يتسع فى الميدان الصغير فى مشارف المدينة وكان هناك مستشفى قد بنى حديثا . وكانت جدرانه التى طليت حديثا باللون الأبيض ماتزال تتالق حتى أنها تبهر نظرك والشمس ساطعة .

وكان كل المرضى قد انتقلوا حديثا من المستشفى القديم فى عربات الاسعاف وعلى النقالات . وكانت عملية النقل هذه تشبه الاستعراض الكبير ، فعربات الاسعاف فى المقدمة والستائر تخفق على النوافذ الصغيرة ، ثم أغطية الاسرة محمولة على النقالات الجميلة التى تشبه الأراجيح .

وعندما وصل تشنشى وكلبه الى الميدان كان الظلام يهبط على المكان فقد غربت الشمس ، ولم يعد الناقهون فى قمصانهم الرمادية وقلنسواتهم البيضاء ينظرون من النوافذ الكبيرة ليحملقوا فى أسى فى الكنيسة المواجهة التى كانت تطل من بين مجموعة من البيوت الخربة المهدمة والاشجار القليلة المتناثرة هنا وهناك .

وتوقف تشنشى وهو متردد ، وأخذ يبحث عن شىء يستند اليه فقد عجزت قدماه عن حمله ، وكان يمتلىء مرارة وأسى وشعورا بالعجز . وكان يحس أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتبينها . فهناك أمه . كيف تعيش وعلى أى شىء تعيش ؟ فهى لم تكن تخرج أبدا الى البيت . وقد أصرت على أن تبعث به الى تلك المدرسة . تلك المدرسة اللعينة التى تقع على مسافة بعيدة . وعليه كل يوم أن يجرى فترة نصف ساعة على الاقل حتى يصل فى الموعد . ثم يعود فى الظهيرة لكى يرجع الى المدرسة بعد أن يلتهم بعض الطعام . وكانت أمه دائما ما تقول انه كسول يضيع وقته يلعب مع الكلب . وكانت دائما ماتؤنبه وتوبخه ، فهو لا يستذكر دروسه ، وهو قذر ، كما ان الناس تغشه عندما تبعث به أمه ليشترى شيئا ، كذلك فهو يحضر الطعام غير الطازج .

والآن أين الكلب ؟

انه هناك .. هذا الكلب التعس . ينتظر فى صمت أن يتخذ سيده أمرا . وعلى أية حال فالكلب يعرف مايراد منه: اتبع سيدك .. وكان تشنشى يريد أن يفعل شيئا ، ولكن كانت هناك دائما نفس المشكلة .. فهو لم يكن يعرف ماذا يفعل . وكان بمكن لوالدته أن تعطيه

المفتاح على الاقل عندما تخرج بحيث بالنهار فى بعض البيوت ـ فهذا هو عملها كما قالت له . ولكن لم يحدث ذلك . فقد قالت انها لا تأتمنه . واذا رجع من المدرسة قبل عودتها فعليه أن ينتظر فهى لن تتأخر كثيرا . ولكن أين ينتظر ؟ أمام الباب ؟ لقد اضطر فى بعض الاحيان أن ينتظر ساعتين فى البرد الشديد بل فى المطر المنهمر وحينئذ ـ وبدلا من أن يبحث عن مكان يتقى فيه هذا المطر ، كان يذهب الى الركن ويقف تحت الميزاب حتى يبتل جسمه . وأخيرا تظهر أمه وهى تلهث ، حاملة مظلة استعارتها من أحد البيوت، وعيناها متقدتان وفى حالة عصبية شديدة وهى تبحث عن المفتاح فى كيس النقود .

ويسمعها تقول « انك مبتل .. اصبر قليلا .. لقد أخرونى » .

وقطب تشنشى وهو يسير الى أعلى التل . وكانت تدور فى عقله أشياء لا يريد أن يفكر فيها والده مثلا .. فهو لا يعرف والده أبدا . وعندما كان صغيرا قيل له ان والده قد مات قبل أن يولد هو . ولكن أحدا لم يقل له من يكون والده هذا ؟ وهو الآن لا يهتم بأن يسأل عن والده أو يأبه لذلك ، فقد يكون ذلك الكسيح الذى شلت يمينه هناك . والذى يحاول أن يجر نفسه الى حجرة الجلوس . وفى تلك اللحظة ذهب اليه الكلب «فوكس» ونبح . لقد كان فوكس هو السند الذى لا يحبه .

ورأى فى مخيلته نساء كثيرات يجلسن فى دائرة ، كروشهن تتكور أمامهن ولكنهن لسن بالحبالى ـ ربما كانت واحدة منهن حبلى ـ تلك التى يرتفع طرف ثوبها أمامها ويجرجر على الارض وراءها . ثم هذه الاخرى التى تحمل طفلا بين ذراعيها وينتهى بقدميه عند بلوزتها : يا لها من كتلة من اللحم .

لقد كانت أمه جميلة ، وهى ما تزال شابة ونحيفة ، وقد أرضعته وهدهدته على صدرها عندما كان صغيرا ، ربما فى بيت فى الريف ، أو فى العراء تحت الشمس أو على قطعة من الارض تجرى فيها عملية درس الحبوب . انه لا يكاد يتذكر له بيتا فى الريف عندما كان صغيرا ، هذا اذا لم يكن قد حلم به أو رآه فى مكان آخر . من يعلم ؟ . وعندما قدم المساء وأشعلت مصابيح الزيت ، استطاع أن يستشعر ظلالا تلقى عتمتها على تلك البيوت بينما تنتقل المصابيح من حجرة الى أخرى ، ويذبل الضوء فى احدى النوافذ ليظهر من جديد فى نافذة أخرى .

وفيما وراء الميدان كان الطريق يتعرج الى جانب أحد التلال ثم يواصل سيره حتى الريف . وتطلع تشنشى الى أعلى ورأى رقعة الفضاء الواسعة . وكانت الاشعاعات الاخيرة للشمس الغاربة قد اختفت ، وفوق التل المظلم كانت ترتفع السماء الزرقاء . وسقطت ظلال المساء على الأرض فأخفت الوهج الأبيض لجدران المستشفى .

ورأى تشنشى سيدة عجوزا تسرع الخطى نحو الكنيسة الصغيرة حتى تؤدى صلاة الليل . وقرر الصبى على الفور أن يدخل أيضا ، وتوقف فوكس وهو يتطلع الى صاحبه ، ذلك لأنه يعرف تماما أنه لا يمكن أن يدخل الكنيسة . وكانت السيدة العجوز ، التى كانت تأخرت عن الموعد ، تلهث عند مدخل الكنيسة وتتكلم بصوت متقطع وهى تجاهد كى تزيح الستار الجلدية الثقيلة . ولكن

تشنشى أزاحها نيابة عنها ، ورآها تقطب جبينها بدلا من أن تشكره. فقد شعرت أنه لم يأت الى هنا للعبادة . وكان الجو باردا فى هذه الكنيسة الصغيرة كما لو أنها كهف . وعلى المذبح كانت هناك شمعتان تحترقان وهما تتذبذبان . وهنا وهناك كانت قليل من المصابيح المتفرقة تتألق . وكنت تحس أتربة العصور الطويلة فى تلك الرطوبة التى يتشبع بها المكان . وكانت الأصداء تتسلل فى هذا الصمت الكثيب على استعداد لأن تعلو عند أقل ضوضاء . ووقفت كل سيدة فى مكانها المعتاد . وشعر تشنشى بأنه يريد أن يحدث صوتا أو يصرخ حتى يجعلهن يقفون ويفزعن . ولكن لا داعى للصراخ . ماذا لو ألقى بكتبه الثقيلة على الأرض كما لو أن ذلك قد حدث عفوا ! لم لا ؟ وترك الكتب تقع على الأرض ، وانطلقت الأصداء كالرعد تحطم كل شىء حوله ، وشعر بمتعة وسعادة . وكثيرا ما حاول تشنشى هذه التجربة. والآن لا ضرورة من اقلاق هؤلاء المتعبدات اللائى تقدمت بهن السن . وخرج من الكنيسة ووجد فوكس مستعدا لأن يتبعه فى الطريق الى أعلى التل . وود لو قضم ثمرة فاكهة ، وقفز على حائط واطىء ليتحسس طريقه بين الأشجار المظلمة . ولكنه لم يكن على يقين فيما اذا كان هذا الدافع قد استقر فى ذهنه نتيجة الجوع أم لمجرد أن يفعل شيئا فحسب .

وكان الطريق المنحدر خاليا من المارة ، ومليء بالأحجار الصغيرة التى كسرتها حوافر الحمير ، وتركتها تتدحرج الواحدة وراء الأخرى . وركل تشنشى حجرين فى الهواء بمقدمة حذائه . وكانت المنحدرات على الجانبين مغطاة بأعواد الشوفان الطويلة الخضراء وهى لذيذة اذ يمضغها وهو سائر . وكانت الأعواد الصغيرة تنبثق وتتماسك معا حتى لتبدو مثل الباقة . واذا ألقيت على أحد فان السنابل التى تعلق به تؤخذ على أنها عدد الزوجات أو الأزواج فى المستقبل وحاول تشنشى أن يجرب هذه اللعبة على فوكس . سبع زوجات لا أقل من ذلك . ولكن حدث أن التصقت كل السنابل بشعر فوكس . ووقف فوكس وعيناه مغلقتان ، وهو لا يعلم شيئا عن هذه اللعبة أو عن الزوجات السبع فوق ظهره .

وشعر تشنشى بأنه لا يريد أن يمضى الى أبعد من ذلك . فقد كان الضيق والضجر يعملان فى نفسه كما حدث قبل ذلك . ومضى الى يسار الطريق ، وجلس على الجدار . ومن مكانه هذا أخذ يتطلع الى القمر الجديد ، وقد بدأ لونه الذهبى الشاحب يلمع فى خضرة السماء الباهتة. ورآه ولم يره مثل تلك الأشياء التى تروح وتجىء فى العقل ، الواحدة مع الأخرى ثم تبتعد جميعا بعيدا عن جسمه الصغير الذى يجلس هادئا حتى لم يعد يدرى به . ولو أنه وضع يده على ركبته أو على قدمه المدلاة فى حذائه القديم القذر لبدت له كشىء غريب عنه . انه لم يعد فى جسمه ، فقد اندمج بالأشياء التى رآها والتى لم يرها . السماء المظلمة والقمر الساطع وتلك المجموعة من الأشجار التى تسمق فى الهواء الرقيق ، والأرض السوداء التى تم حرثها حديثا ، والتى ماتزال تخرج رائحة العفن الذى نتج عن رطوبة هذه الأيام المشمسة الأخيرة من شهر أكتوبر .

وفجأة ، وبينما هو منهمك فيما هو فيه ، شعر بذعر وذهول ، وبحركة

غريزية رفع يديه الى أذنيه • فقد سمع ضحكة قصيرة عالية من تحت الجدار ، كان هناك غلام فى مثل سنه يختبىء الى جانب الجدار الذى يتاخم الحقول وكان قد انتزع عودا من الشوفان أيضا وأخذ ينتزع سنابله ، ورفع يده وهو ممسك بعقده ليطبق بها على اذن تشنشى • وما أن استدار تشنشى حتى أشار اليه الغلام أن يهدأ • ثم حرك عود الشوفان على الجدار تجاه رأس سحلية صغيرة كانت تنظر خلسة من بين الأحجار • وكان هذا الصبى يحاول أن يصيدها واستمر يحاول ذلك ساعة كاملة • ونظر تشنشى فى شغف يراقب مايحدث • وادخلت السحلية رأسها ـ دون أن تدرى ـ فى الأنشوطه، ولكن ليس بالقدر الذى يستطيع به الصبى أن يصيدها ، كان يجب أن تدخل رأسها أكثر قليلا ، واذا ارتعشت اليد التى تمسك بالأنشوطة وانزعجت السحلية فانها سوف تهرب •• نعم •• نعم •• ولكن يجب الانتظار •• وعليه أن يكون مستعدا لأن يشد الأنشوطة فى الوقت المناسب • وهذا العمل كله لا يستغرق ثانية • وفجأة أطبق على السحلية التى كانت تلمع كالسمكة فى نهاية الأنشوطة الطويلة •

ونزل تشنشى فى لهفة من فوق الجدار ، ولكن الغلام الآخر ، وهو يمسك بالأنشوطة خوفا من أن يأخذ تشنشى منه السحلية ، دار بذراعه فى الهواء عدة دورات ثم هبط بالسحلية الى الأرض على حجر صلب كبير كان يرقد بين الأعشاب •

رسم : فاروق حلاق

وصاح تشنشى لا ·· لا تقتلها ·· ولكن بعد فوات الأوان ··

ورقدت السحلية بلا حراك على الحجر، وكانت بطنها البيضاء تلمع فى الضوء· وغضب تشنشى · كان هو أيضا يريد أن يرى السحلية وهى تصاد ، تدفعه الى ذلك غريزة الصياد الكامنة فى أعماقنا جميعا ، ولكن القتل على هذا النحو دون أن يتطلع فى دقة الى هذه العيون الصغيرة والأرجل المختلجة ، وهذه الرعشة التى تسرى فى جسمها الأخضر كله ، عمل مخجل حقا · ومضى تشنشى الى الغلام وضربه فى صدره بكل قوته حتى جعله يستلقى على الارض · ولكن الغلام نهض مرة أخرى وهو يتميز غيظا وغضبا وأمسك بحفنة من التراب من أقرب حفرة ، وألقى بها فى وجه تشنشى فأعماه · وهاج تشنشى وتطاير شررا بسبب طعم التراب فى فمه ، فأمسك بقطعة من الطوب وألقى بها فى وجه الطفل· واشتعلت المعركة · وكان الغلام أكثر سرعة ويصوب فى احكام ودقة · ولم يكن يخطىء الهدف ، وأخذ يقترب شيئا فشيئا ، ويلقى بهذه الصواريخ من التراب التى لا تجرح ولكن ترتطم بقوة فى صدر تشنشى وتسقط كالبرد على وجهه وشعره وأذنيه وحتى فى حذائه · وضاق تشنشى ذرعا اذ وجد أنه عاجز وأنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، فوثب وهو يرفع يده ليمسك بحجر من الجدار ، ووجد شيئا يتعجله ، هو هو فوكس ؟ ·· وقذف بالحجر — وفجاة لم يعد هناك شىء يتحرك — مجموعة الأشجار والقمر الهلال الصغير — بعد أن كان كل شىء يدور · وبدا كما لو أن الوقت قد توقف فى ذهول غريب عند رؤية الغلام وهو ممدد على الارض فاقد الحياة ·

وأخذ تشنشى · وهو مايزال يلهث والذعر يجتاحه وهو يرتكن الى الجدار فى هدوء الريف فى ظلال ضوء القمر ، يبذل الجهد ويغالب وهو فى حالة من الوحدة الأبدية يريد أن يهرب منها · انه لم يفعل ذلك ، ولم يكن يريد ذلك · ولا يعرف شيئا عن ذلك · وحينئذ سار خطوة ثم اثنتين ونظر الى الأرض كأنه شخص آخر يقترب رغبة فى التكشف وحب الاستطلاع · وكان رأس الغلام مدلى الى الارض والدماء ما تزال تنزف من فمه الفاغر · وكان هناك جزء ظاهر من ساقه وبين جواربه وبين بنطلونه القصير · كان كل شىء كحلم وكانت السحلية ترقد ساكنة على الحجر وبطنها الى أعلى والأنشوطة حول رقبتها · وقال تشنشى لنفسه ان عليه أن يستيقظ ويمضى بعيدا · وعلى الفور قفز على الجدار وجمع كتبه وسار يتبعه كلبه كالمعتاد ·

وفى الطريق الى أسفل التل · ازدادت ثقة تشنشى بعد أن اتسعت المسافة بينه وبين المكان الذى كان فيه ، ومن ثم لم يعد يسرع الخطى · ووصل الى الميدان الخالى · وكان القمر يسقط أشعته هنا أيضا · ولكنه كان قمرا آخر لا يأبه به· وكان يلقى ضوءه على الواجهة البيضاء للمستشفى ·

والآن يعود على نفس الطريق الى المنزل الذى لابد وان أمه لم تصل اليه بعد كالمعتاد · ولا داعى لأن يقول شيئا عن جولته ، سوف يقول انه انتظر هنا وأصبح هذا التفسير — الذى سيكون حقيقة بالنسبة لأمه — حقيقة بالنسبة له أيضا · ووقف يرتكن بكتفيه الى الجدار بجوار الباب كما كان من قبل ·

ويكفى أنه يوجد هنا فى هذا المكان ينتظر ···